الفن الاكبر (١)

ميخائيل نعيمه

جاء في الكتاب ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله

لست ادري ، أيمن المؤمنين انتم ام من الملحدين . وان كنتم من المؤمنين ، فأيّ الايمان ايمانكم ؟ او كنتم من الملحدين ، فأيّ الالحاد الحادكم ؟ اذ أنّ في الناس من يتبجّح بالايمان وفي تبجّحه الالحاد كله . وفيهم من يغالي في الالحاد وفي مغالاته الايمان كله . مثلما فيهم الذين لا قدرة لهم لا على الايمان ولا على الالحاد

اما انا — أجارني الله واجاركم من هذه الثنون بين أليفَيْن ! — فأومن بالله وبانهُ مصدر كل منظور وغير منظور . وايماني به هو حجر الزاوية في حياتي . وأؤمن بالانسان وبانهُ صورة الله ومثاله . وايماني بالانسان هو الفلك التي تحملني في خضم هذا الوجود

لولا ايماني بالله لما كان ايماني بالانسان . ولولا ايماني بالانسان لما كان ايماني بالله . فالايمانان من معدن واحد ، بل هما واحد . والذي هداني الى الله هو الله ذاته ، لا ما قرأته عنهُ في الكتب المنزلة وغير المنزلة . والذي قادني الى الانسان هو الانسان نفسه لا ما وعيتهُ من آثاره وتواريخه ودرسته من علومه وفنونه . فمتى ندّعي الايمان بالله قبل ان ينكشف لنا الله في الانسان وعبثاً نحاول فهم الانسان قبل ان يتجلى لنا الانسان في الله . وعبثاً نطلب ذاك او هذا قبل أن ينعتق الخيال فينا من كل قيد فيصير الخالق في الخليقة ، والخليقة في الخالق

ما خلق الله في كل ما خلق إلاّ ذاته . اذ ليس فوقه او تحته ، ولا امامه او خلفه ، ولا قبله أو بعده شيء لم يكن فيه منذ الازل . ومثلما لا بيض ينبوع الاّ بالذي فيه ، ولا تأتي شجرة

(١) الخطبة التي القاها في الكلية الاميركية للبنات ببيروت في ٤ مايو ١٩٣٨

بغير الشر الذي في احشائه ، ولا يشتمل عود إلاّ بالنار التي في قلبه — هكذا لا يفيض من الله إلاّ الله ، ولا يثمر الله الاّ الله ، ولا يسطع الله بغير الله . لذلك كان الانسان الصادر عن الله صورة لمصدره . فكان أزليًّا بأزليته . أبديًّا بأبديته . خالقاً بعين القدرة التي خلقته

لكنها صورة ما تزال غامضةً في الانسان المتدثر بدثار الحسّ الخشن وكل ما يلازمهُ من من خير عليل وشر هزيل . وكانها الصورة الشمسية قبل تظهيرها . واذ ذاك فغاية الانسان من وجوده واحدة لا تقبل الشرك من ايّ نوع كان . ألاَ وهي تمزيق دثار الحسّ لتظهر الصورة بتمامها فيرتفع الانسان الى ما فوق الخير والشر . واذ ذاك فما الزمان بمقيده ، والمكان بحدوده ، والموت بظلماته ، والولادة بأشتها ، وكل ما يتخلل ذلك من أنين وحنين ، ودمع رطباً ينة ، وقلق رتابته ، سوى مساحق وعقاقير سحرية تُعدّها لنا الحياة لنجلو بها صورة الله فينا ، حتى اذا ما انجلت كل الانجلاء اصبحنا في غنىً عن تلك المساحق والعقاقير الى الابد وعدنا لساعد في استعمالها أولئك من اخواننا في الناسوت الذين ما برحت صورهم غامضة ، مبهمة

والناس من هذا القبيل رجلان : رجل يعرف الغاية من هذه المساحيق والعقاقير فيحسن استعمالها ليخلص منها بها ، ورجل يجهل الغاية او يشرك معها غايات سواها . فساحيق الزمان والمكان ، وعقاقير الخير والشر ، وعناصر الموت والحياة لا تزيد صورة الله فيه الاّ غموضاً . وما دام الله فينا غامضاً فنحن في ظلمات السجون وقبضة العذاب

هذه غاية الحياة في الانسان وحياته . ومن كان ذلك اتجاهه تجرّدتْ به روحه عن كل معرفة سوى معرفة بأنه صورة الله ، وجمعت به عن كل ارادة سوى الارادة المنبثقة من تلك المعرفة والتي لا هدف لها الاّ الكشف عن الصورة والتبع بها صافية ، ساطعة ، كاملة . فأصبح في نظره كلّ عصر وكل عمل بل وكل نبة لا تستمدّ حياتها من هاتيك المعرفة وجعاً وعناء وأصبحت كل إرادة لا تستوحي فوقها من تلك الارادة غلاًّ في العنق وسهماً في الكبد . وهكذا كانت عنده معرفة الله في الانسان وإرادة الوصول اليه نقطة الدائرة من الحياة . فكان كلّ ما تمركز فيها ثم انبعث عنها من أعمال الناس عبرةً من أفق واسع الى أفق أوسع . وكان كل ما زاغ عنها خيبةً تعود الى خيبة ، وعثرةً تفضي الى عثرة

***

والآن هذا عساني أقول في الفن الذي سألتموني ان أحدثكم عنهُ ، والذي احاطهُ الناس بهالةٍ من التمجيد والتعظيم ، والتبخير والتكبير ؟ هل يخرج الفن عن انه عملٌ من اعمال الناس ؟ إذنْ هو كسائر اعمال الناس — منهُ ما يتمركز في نقطة الدائرة التي حدثتكم عنها . فهي معرفة

ولهُ إرادة . وهو القليل ، القليل . ومنهُ ما هو زائغ عن نقطة الدائرة . فلا معرفته معرفة، ولا إرادته ارادة . وهو الكثير ، الكثير . الاول يحلو صورة الله في الانسان . والآخر يطمسها بكثير الخطوط والاصوات، والتيارات والحركات ، والاشكال والالوان . الاول يفرض ذاته علينا فرض الصلاة على المؤمن ، والنعاس على الجفن ، والارج على الانف ، والنور على حدقة العين. والثاني يحاصرنا بدماراته الطويلة عن رسالته « العلوية » في خدمة الحق والجمال . وحقه لا يتجاوز اللحم والدم فهو خدعة . وجماله لا يتعدى نطاق البصر فهو شفاعة

اذا اردتم مثلاً للفن الذي يذهب بالانسان الى ابعد من الانسان فلسكم في اي هرم من اهرام مصر ذلك المثال . خذوا هرم الجيزة : جدران اربعة محدودة ترتكز على قطعة محدودة من الارض . وهذه الجدران تتماسك بعضها ببعض وبالارض تماسكاً يجعل منها كتلة واحدة تبدو عند قاعدتها ابدية ببقائها، مروّعة بضخامتها ، ساحقة بثقلها . ثم تأخذ في الارتفاع قيراطاً فقيراطاً وفتراً فتراً ، واذ ترتفع تنحني بعضها الى بعض وتبقى متشابكة متماسكة . لكنها كلما ازدادت ارتفاعاً ضاقت مساحة ، ونقصت ضخامة ، وخفّت وزناً . وعندما تبلغ اقصى مداها في الارتفاع تتلاشى في نقطة في الفضاء . هي نقطة الانفكاك — نقطة الانعتاق — نقطة تلاشي النهايات في اللانهاية . فكأن جهات الهرم الخمس — جدرانه الاربعة والارض القائمة عليها — ما تضخّمت في البداية إلاّ لتتقلص في النهاية . ولا ثقلت وزناً الاّ لتصبح قبر وزن ، ولا ارتبطت بعضها ببعض الاّ لتنفك من كل رباط . ولا كانت شيئاً الاّ لتغدو لاشيء

وهذه بالتمام هي حال الانسان مع حواسه الخمس . فهي لا تقع منها الاّ كدرجات يرقى بها الانسان الى ما وراء الحسّ . ولا خير في قيودها الاّ لتنعتق بها من كل قيد . ولا معنى لوجودها المحدود الاّ لتبلغ بها الوجود الذي لا حدّ لهُ

***

ويلذ لي ، قبل ان أترك مثال الهرم ، ان أذهب به معكم الى أبعد مما ذهبت . تأسألكم ان تتمثلوا هرماً قائماً على شاطىء بحيرة صافية وقد انعكس ظله في ماءها فان الهرم وظله كما لو كانا هرمين متقابلين تلاصقت قاعدتهما وكانت قمّة الواحد في الفضاء وقمة الآخر في الماء . ومن ثمّ أريدكم ان تتمثلوا خيال الهرم في الماء كما لو كان خيال العالم في ضمير الله ، وقمّته كما لو كانت نقطة المصدر . أو شاطىء البحيرة تتمثلوه كما لو كان الحد الفاصل بين عالم الخيال وعالم الحس ، او عالم الروح وعالم المادة

يبتدىء الظلّ في نقطة لا سبيل لك الى ادراكها لا بالحسّ لانها لا تحسّ ، ولا بالعقل لانها

أبعد من مجال العقل ، ولا بالفكر لانها أوسع من نطاق الفكر . وقد لنستطيع ان نتخيل وجودها لانها خيال . ثم يستطيل الظل ويتسع في خطوط تجعل لهُ شكلاً . ولكنهُ شكل لصيق بالخيال لا غير . ثم ينتهي الظل بالتلاشي فاذا به يتحوَّل فوقهُ الى طائفة من حجارة متراصة ، مترابطة ، لها وزن ولها شكل ، ولها لون ولها قياس . وهذه الحجارة تمتن في الصعود الى ان تنتهي في الفضاء بمثل النقطة التي ابتدأ منها الظل في الماء ، فلا وزن لها اذ ذاك ولا شكل ، ولا لون ولا قياس . هكذا يتكاثف الروح فيغدو مادَّة . وتتقلص المادة فتعود روحاً

ولكم من بعد ذلك ان تتمثلوا كل انسان هرماً مستقلاً في ذاته . ثم ان تتمثلوا ذلك الهرم حجراً في هرم أكبر هو البشرية ، والبشرية حجراً في الهرم الاكبر الذي هو الكون . وعندئذٍ فالبشرية التي نحن منها ليست مجموعة اجناس ، وطوائف ، وملل ونحل يفضل بعضها البعض بقوته او بغناه ، او بجاهه او بسلطانه ، او بنسبه او بعلمه . بل هي بناء واحد أسفله في التراب وأعلاه في اللانهاية . وهو بناء متحرك لا يعرف الجمود . أسفلهُ ينهض أبداً بأعلاه الى فوق ، وأعلاهُ يجذب أسفله الى حيث لا قيد ولا حدّ ، ولا ولادة ولا موت ، ولا عقاب ولا ثواب — الى الله — ولا فرق بين حجر وحجر في هذا البناء — أي بين انسان وانسان — الأعلى قدر ما يقترب الواحد من الاساس والآخر من القمّة . فالذين في أسفل هم الذين يحملون اثقال الحراس الساهتة ولم يتنبه خيالهم بعد ليهديهم الى الصلة الابدية بينهم وبين القمّة والى الايمان بانهم بلغوها يوماً ما . والذين اقتربوا من القمّة هم الذين لمع خيالهم واشتد ايمانهم فخفت اعباؤهم الحسّية . والذين بلغوا القمّة هم الذين انعتقوا من ربقة الحسّ فما عادوا يشعرون بجاذبية الارض وضغط السماء . وقد يكون في أعالي الهرم كثير ممن يحسبهم الناس في أسفله . وفي أسفله كثير ممن يحسبهم الناس في أعاليه . وربَّ حجر يلاصق القمّة كان عبداً عند الناس . وسلطان عندهم لم يكن غير حجر في الأساس

***

ما عاديت في الكلام عن الهرم الا لاعطيكم مثلاً للفن الذي هو في نظري جدير بالاعتبار وهو الفن الذي إذا ما تمثلتموه أحسستم كأنكم تنعتقون من الحسّ . واذا ما حاولتم تحديده قادكم الى حدٍّ لا حدود . فرأيتموكم شاملين مثلما الله شامل . ورأيتموكم أزليين أبديين مثلما الله أزلي أبدي . ورأيتموكم خالقين مثلما الله خالق . وبكلمة أخرى ، هو الفن الذي يكشف فيكم عن صورة الله ومثاله . ولا أريد ان أمشي بكم الى شاطئ الارض وبحارها ، ومراتعها ومغانيها ، وسمارجها وبكائبها لأدلّكم في رسوم اي الرسامين ، وتماثيل أي المثّالين ، وبناء أي البنّائين ،

وألحان أي الموسيقيين ، ورقص أي الراقصين ، وتمثيل أي الممثلين ، وشعر أي الشعراء تمحون لمثل هذا الفنّ أثراً . فالفن كالطبيعة — مفتاحه في نظر الناظر وسمع السامع وما يستبطنان عدّة من خيال . فلا أنتم تستطيعون ان تنظروا بعيني ، ولا أنا أستطيع أن أسمع بآذانكم

أما الفن الذي لا يطمح من تصوير الطبيعة الاّ الى نقل جانبٍ ضئيل — وضئيل جدًّا — من أشكالها وألوانها فحسبما دقّ صنعاً لن يعطيكم ذرة مما أنتم قادرون ان تتناولوه مباشرة بحواسكم. فما رأيت البحر على لوحة رسّام الاّ كان سخريةً بالبحر الذي أبصرتهُ بعيني وسمعتهُ بأذني . ولا الشمس الاّ كانت تجديفاً على الشمس التي عرفتها في كل ذرة من نفثات دمي . وكذلك الفن الذي لا يخرج في تصويره الانسان مما ألفناه فيه من عواطف وأفكار ، ونيّات وشهوات، وأفراح وأوجاع ، وتقاليد وأوضاع ، فهو ليس للانسان اكثر من نقل على باب سجنه ، وغشاء فوق الاغشية التي على عينيه ، ونير فوق النير الذي على عنقه

هل منكم من لم يرَ من الناس أشكالاً تضيق بها ذاكرته ؟ أم من يجهل ان الانسان يولد ويموت ، وانهُ بين الولادة والموت يدأب ليعيش ، فيقاتل ويناضل ، ويبغض ويحب ، ويغضب ويرضى ، ويحسد ويطمع ، ويمرض ويتعافى ، ويتزاوج ويتناسل الى كل ما هنالك من هواجس ونزعات وتقلبات ؟ فأي نفع لكم من يصوّر كل ذلك بالألوان او بالحجر او بالكلام فلا يزيدكم معرفةً بما أنتم عارفون ؟ ولئن كانت لهُ مقدرة على الوصف والتصوير ليست لكم ، فقد تهركم المقدرة . لكنها لا تخفف من ثقل ازراركم ، فلا تعطيكم جناح امل ، ولا تذكي فيكم شرارة ايمان ، ولا تدنيكم قيد شعرة من المعرفة بأنكم صورة الله ، ومن الارادة التي تمكنكم من كشف تلك الصورة

***

اذنْ فالفن نوعان : فنٌّ يبتدىء بالمحسوسات لينتهي منها الى ما وراء الحسّ . فكأنهُ يعانق مسابق الزمان والمكان عارفاً ان لا نفع منها الاّ التخلص من قيود الزمان والمكان . وفنٌّ ينشأ في المحسوسات ليفنى فيها . جاهلاً ان التخلص من سابق الزمان والمكان [illegible] ليصبح واحداً منها . ومما يؤسف لهُ اشدّ الاسف ان اكثر فنون الناس من هذا النوع الذي كنت أدعوه عقيماً لولا اعتقاد راسخ في ضميري ان الحياة أدرى مني ومنكم بتدبير بقيا . وان لا عقم فيها فهي كالارض تحوّل كل موت الى حياة ، وكل قذارة الى طهارة ، وكل عقم الى خصب

***

ألم اقل ان الانسان خالق بعين القدرة التي خلقتهُ ؟ وماذا عساهُ يخلق غير ذاته ؟ فهو في كل ما يعمل انما يخلق ذاته كما يعرفها في اللحظة التي يعمل فيها . ونحن لو كانت لنا عيون تنفذ من

ظواهر الامور الى خفاياها الا بصرتنا الانسان كل الانسان في اقل حركة من حركاته وسكنة من سكناته. فما كتب كاتب كلمة الا كتب ذاته فيها. ولا لبس لابس رداء الا لبس فيه ذاته. ولا لفظ ناطق بكلمة الا لفظ بذاته. والذي نخلقهُ في كل ما نخلق انما هو صورة الله فينا على قدر ما تكون غامضة او جلية. فمن السف، والحالة هذه، ان نحاسب كاتباً في ما يكتب، او شاعراً في ما ينظم، او رسّاماً في ما يرسم، او ملحناً في ما يلحن او أي رجل في ما يعمل. اذ انهُ، حتى ولو حاول، لما استطاع ان يعمل اكثر او اقل مما يعمل ولا غير ما يعمل. واعمال الناس هي المصاحيق والعفاريت السحرية التي يجلون او يطمسون بها صورة الله فيهم واذا كان لا بدّ لنا من محاسبة فلنحاسب انفسنا لا غير. ولنحاسب انفسنا حساب من يعرف ان من الاعمال ما يطمس فينا صورة الله ومنها ما يجلوها. ولنحاسب انفسنا حساب من يريد ان يعمل الاعمال التي من شأنها ان تجلو صورة الله. فلا ليث بشيء لان الله في كل شيء ونحن فيهِ مع الله. ولا نكبر على انسان لانهُ صورة الله. ولا نصغر أمام انسان لانا مثال الله. ولا نقيم الفواصل بيننا وبين الناس، او بين الناس والناس، لان الناس كلهم حجارة حيّة في هرم الوجود الالهي

***

إنّ أجل الفنّ ليس في المتاحف ومحترفات الفنانين. بل في حياة موحدة الغاية والارادة، في قلبها ايمان لا يتزعزع بهدف الانسان الاسمى، وفي ايمانها محبة لا تنضب لكل من شاركها وماشاركها في ذلك الهدف، وفي اعمالها وأقوالها، وتزعاتها ونياتها دعامة لذلك الايمان وزيت لتلك المحبة

فان سألتم عن ابدع آيات الفن وأغلاها، قولوا: هو ضمير لا يسخر. وجبين لا يصفر. ولسان حليم شكور. وقلب عفيف غفور. وعين لا تبصر القذى. ويد لا تنزل الاذى. وفكر يرى في انملة عطية. وخيال يربط الازلية بالابدية». وهذه قد تمرّون عليها فيمن لا علم لهم بأسرار الدنان والاخان والمواني قبل ان تلمحوا لها اثراً في كبار الشعراء والرسامين والملحنين وقد تجدونها في الاكواخ الوضيعة قبل ان تجدوها في القصور الرفيعة. وفي المساكر الحقيرة قبل المتاحف الشهيرة. فلا تخدعنكم الالقاب. ولا تغرنكم الشهرة. ولا تعمينكم تقاليد الناس الفنية عن الفن الاكبر — فن امتشاق الانسان من غمد ناموسه، والوصول به الى ذروة الالوهية

وان لم يكفكم لبلوغ المحجة عمر واحد — ولن يكفيكم عمر واحد — فان تتبع اعمار، بعدها اعمار، بعدها اعمار. وان لم تكفيكم الارض — ولن تكفيكم الارض — ففي الفضاء ساكن، بعدها ساكن، بعدها ساكن